

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 10 (2010) : 285 – 317
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

تأويل الخطاب الإباضي بين التزام النص وحجية إعمال الرأي
– مقاربة في المقولات الكلامية –

عبد الرحيم عزاب
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة

مقدمة

1- موضوع البحث ودوافعه:

يُعَدُ البحث في تاريخ التراث الإسلامي، وخاصة في الجانب الكلامي المتعلق بالعقائد وما يكون تبيعًا لها أمرًا ذا بالٍ، إذ ليس من الحق الاعتقاد بأن أقلام الباحثين وعقولهم قد تحقق لها الكشف والإسفار عن جميع حقائقه سواء فيما يتعلق بمادته العلمية أو بالمناهج المستعملة والمطبقة فيه، ولا سيما فيما انشعبت إليه آراء ومذاهب أكابر المفكرين من علماء الإسلام الذين تركوا رصيدا علميا يمثل بحرا زاخرا يَمُورُ بمختلف النظريات والأحكام المتعلقة بشتى فروع المعرفة في هاتيك الحقب من التاريخ، وهذا ما يحض الباحث العلمي ويدفعه إلى التفتيش عنه، خصوصا في القرون الثلاثة الهجرية المتوالية وما جاورها حتى القرن السادس، وهي الفترة الذهبية الأثيرة والمتسمة بالفرادة والتميز والتي تحقق فيها الازدهار والألق العلمي اللامع للمسلمين ما لم يتحقق في سواها من القرون، فكانت الملكات العلمية نضيحة راسخة والإنتاج الفكري ثرًا غزيرًا، وهو ما عبّرت عنه خير تعبير صراعات المذاهب الفكرية واحتكاكاتها وما خلّفته نزعاتها من أفانين الجدل في مختلف شؤون الحياة ومناهجها الدينية والعقلية والسياسية.

وما حوت من تخالفات فكرية بين الفرق التي حفلت بها تلك الفترة – القرن الرابع

الهجري تحديدًا – وكانت بها ملأى خصوصًا بين كبريات الفرق السياسية والدينية التي جرى بينها اختصام وصراع فكري وسياسي بسبب ما اعتقدته من أصول الدين وقواعده يتخرج فهمها للدين ومسائله على ضوء هاتيك القواعد والأصول كالإباضية والمعتزلة والخوارج والأشاعرة وسائر خديناتها من الفرق الإسلامية التي تطوح بينها الخلاف إلى أقصاه.

"ولا عجب فقد انعكست أصول فهم الدين لتلك الفرق على واقع العمل بعد واقع الفكر فراحت كل فرقة سياسية ودينية تُؤَسِّسُ أُسُسًا وتُقعد قواعد وتؤصل أصولاً في سبيل بناء منهجها والدعوة إليه وتتحمل المشاق العلمية والعملية من أجله..."[1]. وما من شك في أن هذا الصراع الفكري الذي استعر أواره في تاريخ تراثنا الديني قد أفرز ركامًا هائلاً من الأفكار والمناهج تشد القارئ له والمطلع عليه إلى البحث فيه شدًّا "خصوصًا في المناهج والأفكار التي انتسبت إلى علماء سمت بهم مكانتهم العلمية إلى مستوى التجديد والاجتهاد والفهم والتأصيل والتأويل في مجال علم الأصليين: علم أصول الدين أو ما يسمى بعلم الكلام أو التوحيد وأصول الفقه ومناهج الاستنباط "[2].

فمن ثمة رأينا ضرورة التعريف بالمنهجية النظرية الاستدلالية التي استخدمتها الإباضية من خلال المباحث المتعلقة بأصول العقيدة الإسلامية وأركانها المعروضة في أَجَلِّ مضانّها العلمية، ومن ثَمَّ فإن الإشكال الرئيس الذي يدور عليه موضوع البحث هو:

*– ما هي ضوابط الإباضية في الاحتجاج والاستدلال على كليات مسائل العقيدة والشريعة وأصولهما؟.

*– وما هي الدوافع الموضوعية والمؤثرات الفلسفية التي صاغت الشخصية الإباضية في منظومة الجدل العلمي؟.

*– وما هي أهم المقولات الإبستيمية التي يتكئ عليها الخطاب الإباضي في إثراء البرنامج العقدي والتشريعي للفكر الإسلامي؟.

لقد رأينا أن ما يلفت النظر إلى الدراسات المقدمة في مجال علم الكلام أو ما اصطلح عليه ابستيميا في عرض مسائل العقيدة الإسلامية والدفاع عنها بمنهج الاستدلال العقلي، يجدها من النزرة والقلة ما يدخلها في حكم الدراسات غير الكافية على مستوى الآثار والإسهامات في مجالات العلوم الشرعية أو في مجال المنهج الذي اعتضدت به الإباضية

وشاركت من خلاله في تشييد البنية الاستدلالية للعقيدة الإسلامية داخل مذهبي المعتزلة والخوارج " الذي كان حدثًا فكريا ودينيا متألقا في تاريخ الفكر الإسلامي. فهو ميلاد جديد للمنهج الاستدلالي المتوسط بين العقل ودليل النقل"[3]. أو كما يدل عليه العنوان بين "التزام النص وحجية إعمال الرأي" . هذه كبرى التساؤلات الرئيسة لهذه الدراسة المتفرعة من الإشكال الرئيس والمتمثل في إجلاء الطبيعة النظرية والصيغة المنهجية التي اعتمدها المذهب الإباضي في الحجاج على العقيدة الإسلامية بطريقته السنية.

2- منهج البحث:

رغبة منّا في طرق ما لم يكن مطروقًا، لسدّ فراغ علمي، فضلنا أن تكون الدراسات في مجال علم الكلام من جهة المنهج النظري الذي تعرض به تعبر من أقل الدراسات التي تتناول بالمعالجة والتحليل التراث النظري الذي خلفه علماء الكلام والفلسفة الإسلامية، السبب الذي يفضي إلى قلة إحاطة بأصالة مناهج علمائنا في هذا المجال، وخصوصًا عند أئمة الإباضية؛ التي ما تزال أرضية بكرًا لم تحظ بما هي جديرة به من الدرس والتمحيص، وجلّ ما حظيت به من بحوث دراسية قليلة وإشارات علمية لطيفة إنما كان يَنْصَبُّ – بوجه خاص– على دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية في ضوء البحث في المؤثرات الفلسفية بين المذاهب وفق المعطى التراثي؛ إذ لم نجد من تعرّض لمنهج الإباضية الاستدلالي على مسائل العقيدة بصورة كافية توجب الاعتبار. وهذا ما دفعنا على طرق هذا الموضوع والتبحر في لجّته معتمدين على المنهج الذي يتلاءم مع طبيعة البحث ويواءم مادته العلمية ألا وهو المنهج التحليلي التفسيري مع انتهاج منهج النقد والحفريات التاريخية أحيانا فيما يكون داعيا له. "على اعتبار أن التحليل والتفسير هو السبيل الكاشف عن الطبيعة النظرية لمنهج أي نسق معرفي"[4]. سواء كان مذهبًا فقهيا أو تيارًا فكريًا.

لذلك كان الاعتماد كثيرا على الدراسات في مجال العقيدة الإسلامية وعلم الكلام والفلسفة وعلم الفقه وعلم البلاغة العربية وعلوم اللغة واللسان التي اتخذت من جهود الجويني إمام الحرمين (ت 478 هـ) في: "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد". وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت 505 هـ) في: "المنقذ من الضلال وإحياء علوم الدين". والشهرستاني (ت 548 هـ) في: "الملل والنحل على هامش الفصل لابن حزم الأندلسي". وشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت 728 هـ) في: "مجموع الفتاوى". وعضد الدين

الأيجي (ت 756 هـ) في: "المواقف في علم الكلام وشرحه للسيد علي بن مُحَّد الجرجاني". وعبد الر ن بن خلدون (ت 808 هـ) في: "المقدمة". وقطب المذهب الإباضي الشيخ مُحَّد بن يوسف أطفَّيش (ت 1332 هـ) في: "النّيل وشفاء العليل". وعرفان عبد الحميد في:"دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية". واللواء حسن صادق في: "جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات". ومُحَّد عبد الحليم عبد الفتاح في: "موسوعة الأديان ". وعبد المنعم الحفني في: "موسوعة الفلسفة والفلاسفة". والشيخ مُحَّد الغزالي في سلسلة: "جرعات الحق المر". ومُحَّد بومعيزة في: "منهج الإمام الجويني في الاستدلال على العقيدة – رسالة الماجستير في العقيدة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2002/2001. مرجعية لها.

أمّا خلال محاولة ضبط الجهاز الاصطلاحي للبحث فقد كُنَّا نعود باستمرار إلى لسان العرب لابن منظور ومعجم مصطلحات الإباضية وذلك لبساطة هذه المعاجم اللغوية والكلامية وثرائها وبعدها عن التعقيد في المفاهيم.

- مدخل إلى علم الكلام الإسلامي
- تعريف الكلام:

▪الكلام: القول، وقيل: الكلام ما كان مكتفيا بنفسه وهو الجملة، والقول ما لم يكن مكتفيًا بنفسه وهو الجزء من الجملة. ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا: "القرآن كلام الله" ولا يقولوا: "القرآن قول الله". ثم إنهم قد يتوسعون فيضعون كل واحد منهما موضع الآخر[5].

▪الكلام: هو ما سمع وفهم، وقيل: هو حروف مؤلفة دالة على معنى[6]. وهو "ألفاظ تشتمل على معانٍ تدلّ عليها ويعبر عنها"[7].

فاللغة وسيلة التفاهم وأداة للتعبير عن المعاني، وهي تتكون من كلمات، وكل ما تركب من كلمتين أو أكثر، وأفاد معنى تاما يسمى–في اصطلاح النحاة– كلاما، أو جملة مفيدة. هذا من حيث الاشتقاق اللغوي لمصطلح الكلام أما من حيث الدلالة البلاغية "فلعل الكلام حول مفهوم الخبر والإنشاء قد نشأ مع نشأة الجدل في عصر المأمون حول فتنة القول أو الكلام بخلق القرآن"[8].

وينحو مفهوم الكلام في أدلة الفلاسفة وأقطاب الفرق والعقائد الإسلامية مدلولا ابستيميا آخر، فهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى، هو بها آمر وناهٍ ومخبر، دل

على ذلك ما أوحاه إلى رسله في القرآن والتوراة والإنجيل، وهذا الكلام عند الجويني إمام الحرمين (ت 478 هـ) لا مفتتح لوجوده، قال في ذلك: "وأطبق المنتمون إلى الإسلام على إثبات الكلام، ولم يصر صائر إلى نفيه ولم ينتحل أحد في كونه متكلما نحلة نفاة الصفات، ثم ذهبت المعتزلة والخوارج والزيدية والإمامية ومن عداهم من أهل الأهواء إلى أن كلام الباري تعالى عن قول الزائفين حادث مفتتح الوجود"[9].

"وكلام الله تعالى على قياس هذا الأصل واحد غير متعدد، قديم غير مجدد، متعلق بجميع المتعلقات، ولم يصر أحد من أهل الإسلام إلى إثبات كلام متجدد فهو صالح لأنه تتعلق به جميع المتعلقات المتجددة، ولم ينحصر إمام الحرمين عند هذا الحدّ من السبر، بل امتدت هجمته الجدلية إلى المعتزلة الذين زعموا أن كلام الله مخلوق كما يخص قول من امتنع من تسميته مخلوقا مع القطع بحدثه"[10].

من هنا تتبين ماهية الكلام من حيث بنيته في النفس حيث يمكن الاستدلال له من جهة اللغة وإطلاق اللسان، لأن العرب تسمى ما جال بالبال كلامًا قائما بالنفس ويؤيد هذا الطرح المعرفي قول الجويني: "وإن رددنا إلى إطلاق أهل اللسان عرفنا قطعا أن العرب تطلق كلام النفس والقول الدائر في الخلد وتقول كان في نفسي كلام، وزورت في نفسي قولا وإشتهار ذلك يغني عن الاستشهاد عليه بنثر ناثر أو شعر شاعر" وقد قال الأخطل:

إن الكلام لفي الفوائد وإنما *** جعل اللسان على الفؤاد دليلاً.

وكلام الله تعالى القديم ليس هو بحروف أو أصوات غير مشابه لكلام المخلوقين، وليس يقع بجارحة متعلق بالمأمورات والمنهيات والمخبرات ولا يتحدد في نفسه، بل المتعلقات هي المتجددات[11]. ويبدو واضحا مما تقدم أن علم الكلام هو ذلك العلم الذي يختص بموضوع الإيمان العقلي بالله تعالى. حيث يشكل غرضه العام الانتقال بالمسلم من التقليد إلى اليقين وإثبات أصول الدين الإسلامي بالأدلة المفيدة لليقين بها.

ومن خلال هذه المقاربات المعرفية حري بنا أن نبسط المفهوم الإبستيمي لعلم الكلام من منوال علم الكلام الإسلامي، حيث اختلف تعريف العلماء حوله اختلافا يوازي اختلافهم في وجهات النظر:

1- فالإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت **505** هـ)، يعرفه بقوله: "علم الكلام مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة. فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم. كما نطق بمعرفة القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورًا فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها، فأنشأ الله طائفة المتكلمين وحرّك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف تلبيسات أهل البدعة ا لمدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله"[12].

2- ويعرفه عضد الدين الأيجي (ت **756** هـ)، بقوله: "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحُجَج ودفع الشبهة، والمراد بالعقائد: ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية المنسوبة إلى دين مُحَّد ﷺ، فإن الخصم وإن أخطأناه، لا نخرجه من علماء الكلام"[13].

3- ويعرفه التهانوي (ت **1158** هـ)، بقوله: "علم الكلام: علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه، وفي اختيار إثبات العقائد على تحصيلها، إشعار بأن ثمرة الكلام إثباتها على الغير وبأن العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع ليعتد بها، وإن كانت مما يستقل العقل فيه"[14].

4- ويعرفه ابن خلدون (ت **808** هـ)، بقوله: "علم الكلام: هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة"[15].

5- ويعرفه الجرجاني (ت **816** هـ)، بقوله: "علم يبحث فيه ذات الله تعالى وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام، والقيد الأخير لإخراج العلم الإلهي للفلاسفة أو علم باحث عن أمور يعلم منها المعاد، وما يتعلق به من الجنة والنّار والصراط والميزان والثواب والعقاب، وقيل: الكلام هو العلم بالقواعد الاعتقادية المكتسبة عن الأدلة "[16].

وتأسيسًا على هذه المقاربات المعرفية المختلفة لعلم الكلام يمكن استنتاج جملة من أمور هي:

أ- "إن علم الكلام يأخذ بمنهج البحث والنظر والاستدلال العقلي كوسيلة لإثبات العقائد الدينية التي ثبتت بالوحي ولهذا فهو يعرف أحيانًا بـ"علم النظر والاستدلال ".

ب– إن وظيفة علم الكلام إنما هي دفع الشُّبَهِ وردّ الخصوم والاحتجاج العقلي على صحة العقائد الإيمانية كما يراها السلف وأهل السنة "[17].

ج– من العلماء من يرى أن لعلم الكلام وظيفيتين مزدوجتين هما:

*– أولا: إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية.

*– ثانيا: دفع الشبه ورد الخصوم عنها.

"وهذا الخلاف الأخير يرجع كما يقول الأستاذ المرحوم مصطفى عبد الرزاق: "إلى الاختلاف في مسألة: هل أن العقائد الدينية ثابتة بالشرع، وإنما يفهمها العقل والشرع ويلتمس لَهَا بعد ذلك البراهين النظرية؟ أو هي ثابتة بالعقل بمعنى أن النصوص الدينية قررت العقائد الدينية بأدلتها؟"[18].

ومن أشهر أسماء علم الكلام، أنه سميّ النظر العقلي في العقائد الدينية بأسماء مختلفة، منها:

أ– الفقه الأكبر: حيث سّماه بهذا الاسم الإمام أبو حنيفة (ت 150 هـ) في كتابه الموسوم ب "الفقه الأكبر" حيث يذكر الإمام بأن "الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم، لأن الفقه في الدين أصل والفقه في العلم فرع، وفضل الأصل على الفرع معلوم" [19].

ب– علم النظر والاستدلال: سميّ بهذا الاسم باعتبار المنهج الذي يعتمده والذي يقوم على التأمل الفكري والنظر والاستدلال في مباحثه وموضوعاته [20].

ج– علم التوحيد والصفات: سميّ بهذا الاسم باعتبار الموضوع، إذ أن مشكلة التوحيد والصفات الإلهية تكونان أشهر مباحث هذا العلم وأهمها.

د– ويسمى أيضا بعلم أصول الدين: لأنه يتعلق بالنظر في أصول العقيدة الدينية وأركانها، مقابل علم "الفقه " الذي يتعلق بالفروع العملية للشريعة الإسلامية.

يقول الشهرستاني (ت 548 ه) : "قال بعض المتكلمين: الأصول هي معرفة الله تعالى بوحدانيته وصفاته؛ ومعرفة الرسل بآياتهم وبيّناتهم... ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسما إلى معرفة وطاعة، والمعرفة أصل والطاعة فرع، فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصوليًا.

ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعيًا. والأصول هي موضوع علم الكلام؛ والفروع هي موضوع علم الفقه"[21].

هـ– أما الاسم الشائع لهذا العلم فهو "علم الكلام" وذلك لجملة أسباب هي:

1– إن أهم مسألة وقع الخلاف فيها في العصر الأول، كانت مسألة كلام الله تعالى، وهل هو أزلي قائم بذاته؟ أم مخلوق حادث؟ فسمي العلم بأهم مسألة فيه.

2– أو إن مبناه كلام صرف في المناظرات على العقائد وليس يرجع إلى عمل.

3– أو إنه في طرق استدلاله على أصول الدين أشبه بالمنطق في توضيحه مسالك الحجة في الفلسفة، فوضع للأول اسمًا مرادفًا للثاني وسمّي كلامًا في مقابل كلمة "منطق".

4– أو إن أبوابه عنونت بـ "الكلام في كذا".

5– أو إنه لقوة أدلته صار كأنه "الكلام" دون ما عداه من العلوم، كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو "الكلام".

6– ولعل أوجه الأسباب في تسميته بالكلام أن أصحابه تكتموا حيث كان السلف يسكت فيما تكلموا فيه. فقد أورود السيوطي (ت 911 هـ) في كتابه الموسوم بـ "صون المنطق" [22]. عن مالك بن أنس – ﷺ – قوله: "إيّاكم والبدع؟ قيل يا أبا عبد الله وما البدع! قال: أهل البدع الذين يتكلّمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عمّا سكتت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان ". وأورد عنه ابن عبد البر، قوله: "الكلام في الدين أكرهه، ولا زال أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلاّ في فيما تحته عمل، فأمّا الكلام في دين الله، وفي الله عز وجل، فالسكوت أحبُّ إِليَّ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدّين إلاَّ فيما تحته عمل" [23].

وروي ابن بابويه القمي عن الإمام جعفر الصادق –ﷺ– قوله: "إذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا"[24]. وفي نفس السياق يمكن إيراد قوله ﷺ: {إن الله شرّع لكم أمورًا فأتوها ونهاكم عن أشياء فانتهوا عنها وسكت عن أشياء ر ةً بكم لا نسيان منه فلا تسألوا عنها}[25].

ويدلّ على ذات السياق قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (سورة المائدة، 101، 102).

❖ الدلالة الفلسفية للمقولات: **CATÉGORIES**

بعد الإفاضة المفهومية لكل من القول والكلام معجميًا ودلاليًا ومحاولة سحب المصطلحين على موضوع بحثنا، نقفز رأسًا إلى بسط المدلول الإبستيمي للمقولات فهي تطلق ويراد بها " أنواع الصفات المضافة أو المسندة أو المقولة، أي ا ـمولات المعرفية التي نستطيع أن نصف بها فردًا كائنًا ما كان. فإذا سَألَ سائل عن أي شيء ما هو ؟ كان حتمًا أن يقع الجواب تحت واحد منهما، فالمقولة معنى كلي يمكن أن يدخل محمولاً في أي قضية.

واختلف الفلاسفة في عددها، فأرسطو الفيلسوف اليوناني يجعلها عشرة تقابل جميع الأجوبة لجملة الأسئلة التي يمكن أن تثار بصدد شيء ما. وهذه الأسئلة عشرة يجاب عنها بعشرة محمولات هي:

الجوهر، والكم، والكيف، والإضافة، والفعل، والانفعال، والمكان، والزمان، والوضع، والحال.

فإذا سألت عن سقراط مثلاً، ما هو ؟ وكان الجواب بأنه إنسان فيلسوف، فقد علمت جوهره.

وإذا سألت عن شيء وكان الجواب ثلاثة أمتار، فالجواب وصف لكميته. وقد يوصف الشيء بكيفيته فيقال بأنه أبيض. وقد يوصف بإضافته إلى شيء آخر فيقال إنه أكبر أو أصغر منه أو بمكانه فيقال إنه في أثينا، أو بزمانه فيقال القرن الخامس قبل الميلادي، أو بوضعه فيقال إنه جالس، أو بملكه أي بحالته فيقال بأنه شاهر السلاح، أو بالفعل فيقال إنه يجادل، أو بالانفعال فيقال إنه غاضب. وكانط الفيلسوف الألماني يجعل المقولات معانٍ ابستيمية رابطة بين الظواهر المعروضة في المكان والزمان، ويجعلها أربعًا، هي: الكم، والكيف، والإضافة، والجهة، وتنقسم كلّ منها بدورها إلى ثلاث:

فالكم ينقسم إلى الوحدة والكثرة والجملة، والكيف إلى موجود وسلب وحدّ، والإضافة إلى جوهر وعلية وتفاعل، والجهة إلى مكان وضرورة واستحالة "[26].

➢ مفهوم الإباضية بين الاشتقاق اللغوي والمسرد التاريخي

الحديث عن الإباضية يقودنا حتمًا إلى البحث في الفرق والعقائد الإسلامية وهو بدوره يسعى إلى توثيق التراث الديني والفكري لرسالة الإسلام العالمية، ويقينًا منَّا "بأنَّ العمل المصطلحي شديد الأهمية لتلمس مفاتيح المذهب، كما أنه شديد الأهمية في المقارنة من خلال المصطلحات والمفاهيم مع المذاهب الأخرى، وهو أخيرًا مُهِمٌ لأنه يضع خريطة لركائز المذهب، وللقواعد والأصول والأدلّة التي استخدمت عبر العصور... كما هو عمل مهم يتعرف من خلاله الدارسون على أصول المذهب ومفاهيمه، وآليات وأدوات الاجتهاد فيه "[27].

❖ مفهوم الإباضية معجميًا ودلاليًا:

ورد مصطلح الإباضية في الحقل المعرفي الخاص بالحضارة والعقيدة والفقه والمذاهب بكسر الهمزة أو فتحها، يقول القطب أطفيّش (ت 1332 هـ) أشهر مراجع الإباضية: "الإباضية بكسر الهمزة على أنه الأصحُّ ".

وهي تسمية اصطلاحية تطلق على أتباع الإمام أبي الشعثاء جابر بن زيد الأزدي (ت 93 هـ/ 711م) في العقيدة والفقه والحضارة.

جاء في معجم أعلام الإباضية (قسم المغرب)، "... عُرِفَ أتباع (الإباضية) في التاريخ منذ صدر الإسلام، وكانت جماعتهم تُسَمَّى أهل الحق وأهل الدعوة وأهل الاستقامة، ولم تختر لنفسها اسم الإباضية، بل دعاها به غيرها، نسبة إلى عبد الله بن إباض التميمي، ثم قبلته نزولاً على الأمر الواقع، فكان الإباضية ينسبون أنفسهم إلى الفكرة لا إلى زعيم أو إمام، ويعتقد الإباضية أن منهجهم هو الفهم الصحيح للإسلام كما أوضحته مصادره الأساسية من الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين"[28].

❖ مسرد تاريخي للمذهب الإباضي:

"الإباضية مذهب إسلامي صحيح، تصدر المذاهب والفرق الإسلامية في نشأته، وكان ذلك على يد الإمام التابعي جابر بن زيد الأزدي (ت 93 هـ)، ولكنه يُنْسب إلى عبد الله بن إباض التميمي (ت86هـ/705م) نسبة غير قياسية، وإنما بسبب ما اشتهر به ابن إباض من مراسلات سياسية دينية، مع الخليفة عبد الملك بن مروان، ونقده لأسلوب الحكم الأموي، الذي ابتعد عن نهج الخلفاء الراشدين، ودعوته الحكام الأمويين للعودة إلى سيرة

الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين من بعده أو اعتزال أمر المسلمين. كما عُرف بمواقفه الحازمة ومواجهته الصارمة لانحراف الخوارج عن الفهم السليم لأحكام الإسلام وتعاليمه.

وظهر عند الناس بمظهر الزعيم؛ فعُرف أصحابه بأتباع ابن إباض أو الإباضية، وغدت بذلك هذه التسمية، نسبة اصطلاحية يُعرف بها أتباع الإمام جابر بن زيد، الذي يمثل أسَّ مذهبهم في العلم، وهو ما اتفقت عليه المصادر الإباضية "[29].

إن مخالفة عبد الله بن إباض لنافع بن الأزرق عام 64هـ/683م لا تعني أنه رسم بفعله – ذلك – منهج الإباضية، لأن دوره هنا وفي كلّ مواقفه، إنما هو إبراز الرأي لا إنشاؤه، فالرأي رأي جابر بن زيد إمام المذهب، هو المنشئ له؛ وعبد الله بن إباض هو المنفِّذ المبرز لذلك الرأي. إن مسألة إمامة جابر بن زيد للإباضية، والذين تزخر كتبهم بآرائه الفقهية والسياسية، لم تعد قابلة للأخذ والرد نظرًا لتضافر الأدلة القوية على صحتها وهو ما أدركته الدراسات الأكاديمية[30].

لم يكن أتباع جابر بن زيد يستعملون مصطلح الإباضية على الأقل في القرنين الأول والثاني، وإن تداوله مخالفوهم وأصبح تسمية مشهورة، التصقت بهم، بحيث لم يستطيعوا دفعها، يقول السالمي:

إن المخالفين قد سمونا بذاك غير أننا رضينا

وأصله أن فتى إباض كان محاميا لنا وماض

مدافعا أعداءنا بالحجة وحاميا إخواننا بالشوكة [31].

❖ التأسيس والمنهج وأبرز الشخصيات:

يبدو أنّ بدايات استعمال جابر بن زيد للفظ "الإباضية" كان مع نهايات القرن 3هـ/9م. وذلك عند عمروس بن فتح النفوسي (ت 283هـ/896 م) في كتابه الموسوم ب: "الدينونة الصافية"، ثم في كتاب الجامع للكدمي (ق 4هـ/10م) وكتاب الموازنة لابن بركة (ق 4هـ/10م).

وخلف أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي جابر بن زيد في إمامة المذهب، فكان العامل على نشر الإباضية في المشرق والمغرب، انطلاقا من البصرة في العراق إلى عُمان

بحدودها السياسية القديمة التي تصل إلى البحرين شمالاً، وإلى سومطرة جنوب شرق آسيا بأندونيسيا. وقد وجدت الإباضية في اليمن وفي خراسان. وأسهمت التجارة العُمانية في إيصال الإسلام إلى بلاد الهند وماليزيا والصين، وإلى بعض الجمهوريات الإسلامية ا ماذية لروسيا الاتحادية حاليًا، وإلى مناطق واسعة من إفريقيا الشرقية، بخاصة كينيا وتنزانيا ومدغشقر وجزيرة زنجبار.

"انتقل المذهب الإباضي مع َكلَةِ العلم إلى بلاد المغرب، واعتنقه البربر في شمال إفريقيا: ليبيا، وتونس، والجزائر. ومنها إلى مصر والأندلس وبلاد السودان الغربي: كالسينغال ومالي والنيجر وتشاد وغانا.

تستند الإباضية في منهجها المعرفي إلى المصادر المتفق عليها بين المسلمين: الكتاب والسنة والاجتهاد بأوسع معانيه، واتسمت هذه المنهجية بالاعتدال بين التزام النص وإعمال الرأي والتعليل، وباعتماد الدليل الشرعي في كل الأحوال.

ولما عرفت الإباضية بيئات عديدة، ومجتمعات متباينة واعتنقتها أجناس مختلفة، كان ذلك عاملاً أسهم في ثراء فقهها وبروزها الحضاري"[32].

❖ مراحل تأسيس المذهب الإباضي:

لقد مرّت الإباضية في خضم تأسيسها بمراحل ومحطات عديدة أهمها:

*– أولا: مرحلة التأسيس في القرن الأول الهجري وبداية الثاني، وتشمل مرحلة البصرة وانتشار المذهب على يد َكلَةِ العلم في المشرق والمغرب.

*– ثانيا: مرحلة إقامة الإمامات في القرن (2هـ/8م)، كإمامة طالب الحق باليمن، والإمامة الأولى والثانية في عُمان، التي استمرت إلى القرن (14 هـ/20م) وإمامة الرستميين في بلاد المغرب في القرنين (2 و3هـ/8 و9م).

*– ثالثا: مرحلة الأزمات والمواجهات مع أنظمة حاولت إزالة دولة الإباضية: كالفاطميين في بلاد المغرب، والعباسيين والبويهيين في بلاد المشرق، وكلها كانت في القرن (3هـ/9م). وتحقق للفاطميين إسقاط الرستميين، الأمر الذي لم يتحقق للعباسين في شأن

الإمامة بعُمان.

إلاّ أن الإباضية هناك دخلت في أزمة ازدواجية السلطة، بحيث عاشت عُمان تحت سلطة الإمامة في شق من جغرافيتها، وعرف الشق الآخر نظام الملك المتوارث، تحت أسرة النباهنة أولا، ثم أسرة البوسعيديين التي أقامت سلطنة قوية بداية من القرن (12هـ/18م).

[*]– رابعا: مرحلة التجمعات في بلاد المغرب: انتقل الإباضية إلى تجمعات تحت سلطة هيئة من المشايخ، أطلقوا عليها تسمية "العزَّابة"، أشرفت على المجتمع في كل جوانبه الدينية والاجتماعية والسياسية إلى اليوم، وبقي العلماء يشرفون بشكل مباشر على المجتمع الإباضي مشرقًا تحت نظام الإمامة ثم السلطنة، ومغربًا تحت نظام العزَّابة، وخير نموذج للتكافل الاجتماعي وشيوع الروح الدينية في نسقه المادي والأدبي سلطنة عمان بالمشرق العربي وغرداية ومنطقة ميزاب بمغربه هذه الأخيرة التي تبقى شاهدة على سمو الروح في الصحوة الإيمانية ومسالك الصيرورة الاجتماعية الناجحة التي ينصفها الواقع وتؤيدها الحقائق والمنجز القومي الإيجابي في تفعيل الحراك الجمعوي والسياسي والحفاظ على التماسك الاجتماعي الذي قلَّ نظيره حتى في الدول الكبرى.

وهذه دلالة قوية تصرخ في آذان الكثير من المنصفين في المعطى السياسي والديني، باعتبار أن "الإباضية في منهجها المعرفي تستند إلى المصادر المتفق عليها بين المسلمين: الكتاب والسنة والاجتهاد بأوسع معانيه، وهي أقوى المذاهب الإسلامية في تبنى روح الإسلام بين التزام النص و حجية إعمال الرأي والتعليل، وباعتماد الدليل الشرعي في كل الأحوال "[33].

➢ أبرز الشخصيات:

كل أمة تزخر بكبار شخصياتها العلمية والسياسية والأدبية والدينية، ولقد تربعت الإباضية على أرضية واسعة في الوطن العربي والإسلامي بكبار العلماء.

فمن أبرز علماء الإباضية بالمشرق الإسلامي:

1– بعد إمامها جابر بن زيد الذي "يعد من أوائل المشتغلين بتدوين الحديث آخذًا العلم عن عبد الله بن عباس (ترجمان القرآن) الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم:{اللهم فقه في الدين وعلّمه التأويل} "[34]. وعائشة أم المؤمنين – ﵂ –

وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر وغيرهم من كبار الصحابة، مع أن جابرًا قد تبرأ منهم.

2- "أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة: من أشهر تلاميذ جابر بن زيد، وقد أصبح مرجع الإباضية بعده مشتهرًا بلقب القفاف، توفي في ولاية أبي جعفر المنصور (158 هـ).

3- الربيع بن حبيب الفراهيدي (ق 2هـ/8م) الذي عاش في منتصف القرن الثاني للهجرة وينسبون له مسندًا خاصًا به يسمى "مسند الربيع بن حبيب" وهو مطبوع ومتداول"[35].

4- "ومن أبرز العلماء الذين تعاقبوا على المذهب الإباضي في المشرق الإسلامي نجد كلا من:

- **مُحَمَّد بن محبوب في (ق 3هـ/ 9م).**
- **ومُحَمَّد بن سعيد الكدمي في (ق 4هـ / 10م).**
- **ومُحَمَّد بن بركة البهلوي في (ق 4هـ / 10م).**
- **وسلمة بن مسلم العوتبي في (ق 6 هـ / 11 م).**
- **وأ د بن عبد الله الكندي في (ق 6هـ / 12 م).**
- **ومُحَمَّد بن إبراهيم الكندي في (ق 6هـ / 12م).**
- **والإمام عبد الله بن   يد السالمي (ت 1332هـ / 1914م) "[36].**

أما في المغرب الإسلامي (الشمال الإفريقي) أيام الدولة العباسية، فمن أئمتهم:

- **الإمام الحارث بن تليد.**
- **أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري.**
- **أبو حاتم يعقوب بن حبيب.**
- **حاتم الملزوزي.**

ومن الأئمة الذين تعاقبوا على الدولة الرستمية نسبةً إلى مؤسسها عبد الر ن بن رستم (ت171هـ / 887م) وعاصمتها "تاهرت" بالجزائر، ودامت مدة حكم هذه الدولة تحت تنوير المذهب الإباضي 133 سنة[37].

ومن العلماء الذين تعاقبوا على الدولة الرستمية:

– "سلمة بن سعد: حيث قام بنشر المذهب الإباضي في إفريقيا في أوائل القرن الثاني الهجري.

– ابن مقطير الجناوني: حيث تلقى علومه في البصرة وعاد إلى موطنه في جبل نفوسة بليبيا ليسهم في نشر المذهب الإباضي.

– عبد الجبار بن قيس المرادي: كان قاضيًا أيام إمامهم الحارث بن تليد.

– السمح أبو طالب: من علمائهم في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، وكان وزيرًا للإمام عبد الوهاب بن عبد الر ن بن رستم، ثم عاملاً له على جبل نفوسة بليبيا.

– أبو ذر أبان بن وسيم: من علمائهم في النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، وكان عاملاً للإمام أفلح بن عبد الوهاب بن رستم على حيز طرابلس "[38].

– "أبو عبد الله مُحَّد بن بكر النفوسي: مؤسس نظام الحلقة (ت 440هـ / 1049م).

– أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني، ومعاصره أبو عمّار بن الكافي (ق6هـ/12م).

– أبو ساكن عامر بن علي الشماخي (ت 792 هـ/1389م).

– عبد العزيز بن إبراهيم الثميني (ت 1223هـ/1808م).

– مُحَّد بن يوسف أطفيَّش (ت 1332/1914م)، ويعد قطب ومرجع الإباضية في الجزائر.

– إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان، وسليمان بن عبد الله الباروني، وإبراهيم بن عمر بيّوض وعلي يحي معمّر وكلهم من فطاحلة المذهب الإباضي في المغرب الإسلامي – الجزائر تحديدًا–... "[39].

ومن خلال هذا المسرد التاريخي للمرجعيات الإباضية مشرقًا ومغربًا، يتجلى واضحًا الحضور القوي – زمانيًا ومكانيًا – لهذه الحركة الدينية والفرقة الكلامية "التي أسهمت بتراثهم المكتوب في الفكر الإسلامي، والفكر السياسي ببناء كيانات الإمامة، وتطبيق السياسة الشرعية المقتفية آثار الخلفاء الراشدين، ولهم دور بارز في نشر الإسلام وحضارته وذلك في حقول التجارة، والعمران والري والنظم الاجتماعية والتربوية"[40].

➢ مدخل إلى العقائد الدينية والفكرية للإباضية

من أهم المشكلات التي تقف أمام محاولة تقنين وضبط المصطلح الكلامي، وعلاقته بأطر الحجاج العقلي في الاستدلال على العقيدة، تناثر المصطلحات الكلامية داخل المنظومة الدينية للمذاهب والفرق والجماعات مما يحتاج إلى أناة وتمهل حتى يمكن جمع شتات تلك المصطلحات... "فالنص الديني المقدس "القرآن الكريم" معجزات ربانية وطاقات لغوية ونصوص عقدية وتشريعية أزلية لا تنضب، وإبداع إلهي متجدد لا تقيده مبادئ مطلقة، ومن ثَمَّ فإن القواعد التي تحكمه ليست بالضرورة خاضعة لمنطق الثبات والاستقرار"[41].

فالمذهب الإباضي امتداد تاريخي للفكر الإسلامي الذي نما وترعرع في تربة الجدل الكلامي والفلسفي في الاستدلال على العقيدة –في عصوره الذهبية الأولى– من الاجتهاد بالعقل في ضوء تعاليم الكتاب والسنة، ولقد أثارت الإباضية الكثير من الجدل وأحدث الكثير من أساليب الحجاج في الدفاع عن الموروث الحضاري للإسلام وكانت –أي الإباضية– ميلاد عهد جديد لفتوحات عولمة النص الديني مما تمخض عنها الكثير من الفرق والمذاهب كالخوارج والمعتزلة والأشاعرة فيما بعد... الذين أرسوا دعائم أصول الدين فيما أرسى غيرهم أسس أصول الفقه ويؤكد هذه المُسلَّمَة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت 728 هـ)، قائلا: "... وإن كان مقصوده بالأصولي مَنْ يعرف "أصول الفقه" وهي أدلة الأحكام الشرعية على طريقة الإجمال، بحيث يميّز بين الدليل الشرعي وبين غيره؛ ويعرف مراتب الأدلة؛ فيقدم الراجح منها –وهذا هو موضوع أصول الفقه– فإن موضوعه معرفة الدليل الشرعي ومرتبته،فكل مجتهد في الإسلام أصولي؛ إذ معرفة الدليل الشرعي ومرتبته بعض ما يعرفه المجتهد، ولا يكفي في كونه مجتهدًا أن يعرف جنس الأدلة بل لا بدّ أن يعرف أعيان الأدلة، ومَنْ عرف أعيانها وميّز بين أعيان الأدلة الشرعية وبين غيرها كان بجنسها أعرف، كمن يعرف أن يميز بين أشخاص وغيرها، فالتميز بين نوعها لازم لذلك، إذ يمتنع تمييز الأشخاص بدون تمييز الأنواع.

فالأصوليون يذكرون في مسائل أصول الفقه مذاهب المجتهدين كمالك، والشافعي، والأوزاعي، وأبي حنيفة وأ ـمد بن حنبل، ومذاهب أتباعهم... وقد عرفوا أصول الفقه بأعيانها مستعملين إياها في الاستدلال على الأحكام"[42]. "إن العقل المؤمن مرصد واعٍ يلتقط كل ما يمس الإسلام من قريب أو من بعيد، فإن المهتمين بأمر

الإسلام يرصدون ما يمس حقيقة رسالته ومسار دعوته وشؤون أمته، وعوامل المد والجزر، واليقظة والغفلة، ثم يقدمون حسابًا مضبوطًا لما رصدوه ..."[43].

لقد قدمت الإباضية للناس حقائق ناصعة عن الإسلام تعلمتها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن فيض عالم الترجمة ونقل علوم الغير إلى المسلمين وبنظرة ثاقبة للتاريخ ووقائع الأحداث القريبة والبعيدة وتحليل صحيح لها. كما "عرفت دور العقيدة في تكوين النهضات، فقرروا أن يجعلوا هذه العقيدة طاقة يتحملون بها المتاعب ويستهينون في سبيلها بالتضحيات الجسيمة"[44].

➢ أفكار ومعتقدات الإباضية

– المقولات الكلامية بين جدلية الخطاب الديني وتجليات الأنساق المعرفية –

ما يجب تأكيده بادئ ذي بدء أن فرقة الإباضية هي التي تتصدر قافلة المذاهب والفرق والجماعات في النظرية والممارسة في العالم الإسلامي – حاليًا – فلئن كانت فرقة الخوارج قد نشأت بعدما هو معروف من قضية التحكيم التي خدع فيها عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري، ودب الخلاف بين الخوارج فتفرقوا أحزابًا، كل حزب يفارق الآخر في المبدأ والعقيدة: ولكن يجمع الكل على مبدأين اثنين:

أحدهما: إكفار عثمان وعلي، ومعاوية، والحكمين، وأصحاب الجمل، وكل من رضي بالتحكيم.

ثانيهما: وجوب الخروج على السلطان الجائر.

وهناك مبدأ ثالث: يقول به أكثر الخوارج وهو الإكفار بارتكاب الكبائر.

فهل تجاوزت الإباضية المعايير الدينية لشرح البرنامج الأصولي للإسلام وتأصيله؟.

وهل طوّعت منظومة الحجاج لديها لهذه العالمية "عقيدة من مفردات الفكر الإسلامي التي تعتمد على نصوص قاطعة في كتاب الله وسنة رسوله! ويستطيع قارئ القرآن الكريم أن يطالع هذه العالمية في سور التكوير، والقلم، وص، وسبأ، والفرقان، والأنبياء، ويوسف، والأعراف، والأنعام، أي في عشرة مواضع متفرقة، وجميع هذه السور مكية؟"[45]. "ولسنا نعرف من فرق الخوارج فرقة باقية إلى اليوم غير فرقة الإباضية، وهي أعد لها... "[46].

ومن الزخم العقائدي والفكري الذي وقع لنا من حجاجهم في الاستدلال على العقيدة والتي تأثرت إلى حدّ كبير بمعتقدات الإباضية ومبادئهم ما يلي:

"أصحاب عبد الله بن إباض الذي خرج في أيام مروان بن مُحَّد، فوجه إليه عبد الله بن مُحَّد بن عطية، فقاتله ببسالة وقيل إن عبد الله بن يحي الإباضي كان رفيقًا لَهُ في جميع أحواله وأقواله قال: إن مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومُنَاكَحَتُهُمْ جائزة، وموارثتهم حَلاَل وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرام. وحرام قتلهم وسبيهم، إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة. وقالوا: إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلاّ معسكر السلطان فإنه دار بغي. وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم، وقالوا في مرتكبي الكبائر: إنهم موحدون لا مؤمنون ثم اختلفوا في النفاق: أيسمى شركًا أم لا؟. قالوا: إنّ المنافقين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا موحدين، إلاّ أنهم ارتكبوا الكبائر، فكفروا بالكبيرة لا بالشرك وقالوا: كل شيء أَمَرَ الله تعالى به فهو عام ليس بخاص وقد أمر به المؤمن والكافر وليس في القرآن خصوص. وقالوا: لا يخلق الله تعالى شيئًا إلاّ دليلاً على وحدانيته، ولابد أن يدلّ به واحد. وقال قوم منهم: يجوز أن يخلق الله تعالى رسولاً بلا دليل ويكلف العباد بما أوحى إليه. ولا يجب عليه إظهار المعجزة، ولا يجب على الله تعالى ذلك إلى أن يخلق دليلا "[47].

"وإباضية اليوم إحدى فرق الخوارج المعتدلين وأقربهم إلى أهل السنة والجماعة يسكنون سلطنة عمان"[48]. ومن مواقع انتشارهم ونفوذهم أنه "ما يزال لهم وجود إلى وقتنا الحاضر في كل من عُمان بنسبة مرتفعة وليبيا (بجبل نفوسة) وتونس (جزيرة جربة) والجزائر (غرداية ووادي ميزاب) وفي واحات الصحراء الغربية وفي زنجبار التي ضمت إلى تانجانيقا تحت اسم تنزانيا"[49].

"ولمَّا ظهرت المذاهب الدينية تأثر الفكر الإسلامي بها إلى حد كبير، ذلك لأن القرآن الكريم كان هو المرجع الأول الذي يقصد إليه أصحاب المذاهب المختلفة –من المسلمين – ليأخذ كلّ منه ما يشهد لمذهبه، ولو بطريق إخضاع النص القرآني له، وقسره على موافقة رأيه وهواه، وتأويل ما يصادمه من ذلك تأويلاً لا ينافي مذهبه ولا يُعَارِضُ عقيدته"[50].

لقد كانت فرقة الإباضية من بين هذه الفرق التي تأوّلت كثيراً من آيات القرآن الكريم على غير تأويلها، واتجهت بالكثير من نصوصه اتجاها عقليًا حدسيًا من أجل خدمة مبادئها التي تدين بها. وإذا ذهبنا نستعرض ما كتبه المفسرون من الإباضية في تفاسيرهم والأصوليون في معتقداتهم وأفكارهم، خرجنا منها بجملة كثيرة من هذه التأويلات، التي تخدم أصولهم والتي تتقاطع مع الأصول الخمسة المنسوبة لفرقة المعتزلة في الجوهر لا في المظهر في المعنى والسياق وليس بالضرورة في المباني والمناهج. وهذه الأصول الخمسة التي يجمعون عليها، هي:التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وللإباضية آراؤهم في الاستدلال على أصول العقيدة الإسلامية "كانوا أكثر علمًا وأصدق قلبًا ولسانًا وأعظم أمانة منَّا فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكًا عليهم "ولكن يقتضينا الإنصاف للحقيقة أن عقائدهم أقرب لتوجهات أهل السنة والجماعة توائم بين تداعيات إثبات النقل وتجليات الأنساق المعرفية المستنبطة من أصول الاجتهاد بالرأي بالرغم من العدول أحيانًا من سلطة وقدسية النص قال عليه الصلاة والسلام {مَنْ قَالَ في القرآن بَرأْيِهِ فأصَابَ فقد أخْطَأَ}[51]. ويؤيد ذات السياق قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا ﴾ إلى قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (المائدة، 55، 56). وقوله سبحانه: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (النساء، 59). وهذه الأصول أمر بها عمر بن الخطاب ﷺ لشريح حيث قال: "اقض بما في كتاب الله، فإن لم يكن فبما في سنة رسول الله، فإن لم يكن فبما اجتمع عليه النّاس، وفي رواية فيما قضى به الصّالحون "[52].

فأمّا الأمر باتباع الكتاب والسنة في نفس السياق فكثير جدًّا كقوله تعالى:

- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (النساء، 64).
- ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء، 65).
- ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (سورة الأنعام، 153).
- ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف، 3).

✓ ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف، **157**، **158**).

✓ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور، **63**).

✓ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾(الأحزاب، **36**).

✓ ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (الحشر، **7**).

وقال عليه الصلاة والسلام: {أنتم شهداء الله في الأرض}[53].

وتأسيسا على هذه المقاربات النصية القاطعة والأزلية والمقدسة، فإن المذهب الإباضي تبنى مشروعيتها نصًا وروحًا ولم يعزل العقيدة عن المعركة ولا الشريعة عن دنيا الناس، لقد استقلت الإباضية عن غيرها من الفرق والمذاهب بالرأي والموقف وأدركت في بداية تعاملها مع الدين البعد الرسالي للاجتهاد بالرأي وفضيلة التقارب مع المذاهب، ومعرفة الإسلام، بعد القرآن والسنة فقه حياة، والفقه والإجماع والاجتهاد لابدّ من دراسة واسعة لمختلف المذاهب والأفكار والعقائد. فهل هذه الفرق الكلامية خطأٌ عقلي وخطيئة خلقية، يقول الشيخ محمّد الغزالي ر ه الله: "إن العلم والإيمان قرنيان، بل شيء واحد في الحقيقة! وأنه ليس هناك يقين ديني يناقض يقينًا علميًا، وأن كلمات الله في وحيه ترديد لكلماته في صحائف الكون والحياة، وفي قيام السماوات والأرض "[54].

❖ الأفكار و المعتقدات:

إن مصدر الاعتقاد عند الإباضية والاستدلال عليه نابع من الخبر المتواتر في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وتقوم أدلّ عقائدهم على المعادلة الفلسفية الآتية:

1- كلام برهاني وهو ما وقع فيه من نص قرآني أو حديث قطعي الثبوت والدلالة.

2- قول جدلي وهو ما ائتلف من المشهورات المستنبطة من الاستدلال والحجاج العقلي والمذهبي...

3- قول خطابي وهو ما ائتلف من المظنونات المترجحة الصدق على الكذب وهذه قضايا في تأويل الخطاب الديني لدى الإباضية نتناولها بالقبول والرد حسب المقاييس العلمية والمصادر النقلية على النحو الآتي:

1- صفات الباري سبحانه وتعالى هي هو؟ أم هي غيره؟ فمذهب الإباضية يرى أن صفاته الذاتية هي ذاته لا بشيء زائد عليه. ووافقهم على هذه المقولة الجدلية الفيلسوف ابن عربي الأندلسي، وقال لا فرق بين قول القائل: إنّ صفات الله تعالى غيره، وبين قول اليهود: إن الله فقير (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)، إلاّ تحسين العبارة. ويظهر من خلال كتبهم ومرجعياتهم تعطيل الصفات الإلهية؛ وهم يلتقون إلى حد بعيد مع المعتزلة في تأويل الصفات ولكنهم يدعون أنهم ينطلقون في ذلك من منطلق عقدي، حيث يذهبون إلى تأويل الصفة تأويلاً مجازيًا بما يفيد المعنى دون أن يؤدي ذلك إلى التشبيه. وللتأويل المجازي نكات بلاغية أشار إليها شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية بقوله: "إن الفائدة في استعمال اللفظ المجاز دون الحقيقة قد يكون لاختصاصه بالخفة على اللسان، أو لمساعدته على وزن الكلام نظمًا ونثرًا، أو للمطابقة والمجانسة والسجع، وقصد التعظيم، والعدول عن الحقيقي للتحقير؛ إلى غير ذلك من المقاصد في الكلام "[55].

ولكن كلمة الحق في هذا الصدد تبقى دائمًا مع أهل السنة والجماعة المتبعين للدليل، من حيث إثبات الأسماء والصفات العليا لله تعالى كما أثبتها لنفسه، بلا تعطيل ولا تكييف ولا تحريف ولا تمثيل "[56].

2- القول برؤية الباري سبحانه في الدار الآخرة، فالإباضية ينكرون ذلك؟ رغم ثبوتها في القرآن الكريم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة، 22–23). والمنع قول عائشة ﵂ من الصحابة وقتادة والزمخشري وغيرهم من المعتزلة والشيعة، والحجة قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام، 103) [57].

3- يؤولون بعض مسائل الآخرة تأويلاً مجازيًا كالميزان والصراط.

4- أفعال الإنسان خلق من الله واكتساب من الإنسان، وهم بذلك يقفون موقفًا وسطًا بين القدرية والجبرية.

5- نفي التشبيه عن الله سبحانه وتعالى، فبهذا يقول الإباضية، وكلّ ما ورد مما يوهم التشبيه فهو مُؤَوّلٌ بما يليق به، كقوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (القمر،14). فأثبت عيونًا كثيرة. وقال سبحانه في نفس السياق: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه،39). فدللت هذه الآيات على أنها غير مراد ظاهرها.

6- أو مقولة من قال: إن القرآن غير مخلوق، فعند ا لمحقيقين في الإباضية أن القرآن مخلوق، إذ لا تخلو الأشياء إمّا أن تكون خالقًا أو مخلوقًا. وهذا الكتاب (القرآن) الذي بين أيدينا نقرؤه ونرتله مخلوق لا خالق لأنه منزل ومتلو، وهو قول المعتزلة وقد وافقوا الخوارج في ذلك، يقول الأشعري: "والخوارج جميعًا يقولون بخلق القرآن"[58].

7- مقولات الإباضية في أصناف الناس:

▪مؤمنون أوفياء بإيمانهم .

▪مشركون واضحون في شركهم .

▪قوم أعلنوا كلمة التوحيد وأقروا بالإسلام لكنهم لم يلتزموا به سلوكًا وعبادة. فهم ليسوا مشركين لأنهم يقرون بالتوحيد، وهم كذلك ليسوا بالمؤمنين؛ لأنهم لا يلتزمون بما يقتضيه الإيمان. فهم إذا مع المسلمين في أحكام الدنيا لإقرارهم بالتوحيد وهم مع المشركين في أحكام الآخرة لعدم وفائهم بإيمانهم ولمخالفتهم ما يستلزمه التوحيد من عمل أو ترك[59].

8- للدار وحكمها عند محدثي الإباضية صور متعددة، ولكن محدثيهم يتفقون مع القدامى في أن دار مخالفيهم من أهل الإسلام هي دار توحيد إلاّ معسكر السلطان فإنه دار بغي.

9- يعتقدون بأن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين، ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السلاح والخيل وكل ما فيه من قوة الحرب حلال وما سواه حرام.

10- قولهم في مرتكب الكبيرة إنه كافر كفر نعمة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة، **44**). وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران، **97**). فكل من لم يحكم بما أنزل الله وهو مستطيع فهو كافر، وكل تارك للحج وهو مستطيع فهو كافر بنعمةِ الله التي أنعم عليه من الاستطاعة [60].

كما أن مرتكب الكبيرة كافر لا يمكن في حال معصيته وإصراره عليها أن يدخل الجنة إذا لم يتب منها، فإن الله لا يغفر الكبائر لمرتكبيها إلاّ إذا تابوا منها قبل الموت. فالذي يرتكب كبيرة من الكبائر يطلقون عليه لفظة (كافر) زاعمين بأن هذا كفر نعمة أو كفر نفاق لا كفر مِلَّة، بينما يطلق عليه أهل السنة والجماعة كلمة العصيان أو الفسوق، ومن مات على ذلك، في اعتقاد أهل السنة، فهو في مشيئة الله، إن شاء غفر له بكرمه وإن شاء عذبه بعدله حتى يطهر من عصيانه ثم ينتقل إلى الجنة. غير أن جماعة الإباضية فيقولون بأن العاصي مخلد في النّار، وهي بذلك تتفق مع بقية الخوارج والمعتزلة في تخليد العصاة في جهنم[61].

11- خلود الفاسق الذي مات غير تائب في النّار، ووافقهم على هذه المقولة السعد من المالكية، وقيل: إنه من الشافعية، ونص كلامه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء، **48**). وهنا ينكرون الشفاعة لعصاة الموحدين؛ لأن العصاة – عندهم– مخلدون في النار فلا شفاعة لهم حتى يخرجوا من النار فشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لا تكون من مات مصرًا غير تائب، إنما الشفاعة لمن مات على صغيرة، أو مات وقد نسى ذنبا أن يتوب منه، أو لزيادة درجة في الجنة، أو لتخفيف الموقف على المؤمنين وإراحتهم منه إلى الجنة، بقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ َيِمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر، **18**). وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ (الأنبياء، **28**). وقوله عليه الصلاة والسلام لعشريته: {إني لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس، ويا صفية، ويا فاطمة. (الحديث): "لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم"}.

12- ينفون شروط القرشية في الإمام إذ إن كل مسلم صالح لها، إذا ما توفّرت فيه الشروط، والإمام الذي ينحرف ينبغي خَلْعُهُ وتَوْلِيَةُ غيره، وعدم لزوم الإمامة في

قريش مقولة الأنصار وعمر بن الخطاب وأبي ذر الغفاري من الصحابة، واختاره العلامة الموريتاني الشنقيطي صاحب أضواء البيان وغيره من العلماء[62].

13- من مقولات الإباضية تهجم بعضهم على الخليفة الراشد عثمان بن عفان وعلى معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ﷺ، فهم يرون في أصحاب النبي ﷺ إنهم كغيرهم في الأعمال لا في درجات الصحبة والمنزلة الأخروية. فالعاصي منهم كغيره من بعدهم كقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ (الحجرات، 2). وقوله تعالى عند ذكر بيعة الراضون: ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (الفتح، 10). وقد رجم رسول الله صلى الله وعليه وسلم الزاني منهم وجلد الشارب وقطع يد السارق منهم وهجر عاصيهم، وقوله: {لو سرقت فاطمة ابنتي لقطعت يدها } ووافقهم على هذه فرقة المعتزلة وهو رأي الصحابة أنفسهم في بعضهم وهم أسوة[63].

14- من مقولات الإباضية الإمامة بالوصية باطلة في مذهبهم، ولا يكون اختيار الإمام إلاّ عن طريق البيعة، كما يجوز تعدد الأئمة في أكثر من مكان.

15- لا يوجبون الخروج عن الإمام الجائر ولا يمنعونه، إنما يجيزونه، فإذا كانت الظروف مواتية والمضار فيه قليلة، فإن هذا الجواز يميل إلى الوجوب وإذا كانت الظروف غير مواتية والمضار المتوقعة كثيرة والنتائج غير مؤكدة فإن هذا الجواز يميل إلى المنع. ومع كل هذا فإن الخروج لا يمنع في أي حال، والشراء (أي الكتمان) مرغوب فيه على جميع الأحوال ما دام الحاكم ظالمًا[64].

16- تعتقد الإباضية بالقضاء والقدر أنه مقدر من الله تعالى، وأن الخير والشّر خلق من الله وكسب من العباد، وها هنا يوافقون أهل السنة والجماعة في هذا، والاستدلال والحجاج قوله تعالى:

- **﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف،54).**
- **﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾(الصافات، 96).**
- **﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الأنبياء، 23).**

17- أنهم يبطلون الصلاة بالقنوت فيها، ومنه قول (آمين) مستدلّين بقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة، 238). وقول النبي مُحَمَّد ﷺ: {صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين}[65].

18- أنهم لا يقولون بالمسح على الخفين، وأن الصلاة لا تجوز به والمنع مأخوذ من قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة، **6**).

19- من مقولات الإباضية في الآداب والأخلاق والمعاملات تحريم حلق اللحية، وقد أجمع على توقيرها الصحابة وقد نهى رسول الله ﷺ عن حلقها، وقال: {جزوا الشوارب وأعفوا اللحى وخالفوا المجوس، وفي رواية خالفوا أهل الكتاب ...}. لأنه فيه تشبيه بالنساء، وقد نهى النبي ﷺ عن التشبه بهن، وفيه: أن توقيرها من الخصال العربية التي أمر رسول الله ﷺ با ـافظة عليها بقوله: {إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق}. واللحية عربية والحلق أعجمي. ولله دّر الإباضية في هذا التوجه الأخلاقي الذي ينم عن الوازع الديني والكمال الخلقي وروح الإنتماء والأصالة[66].

20- من أبرز أبجديات التأويل الإباضي لآيات الله الشرعية والكونية التي يبرهن عليها التاريخ وينصفها الواقع المعيش تحريمهم تعاطي السجائر (الدخان) تحججًا من قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ...﴾ (الأعراف، **157**).

وقد ثبت بالتجربة العلمية القطعية أن الدخان من الخبائث ويؤيد هذا آخر ما توّصل إليه العلم الحديث أن (الدخان مضر بالصحة، وبات يهدد الإنسانية عن بكرة أبيها لذا قللت الدول المنتجة من شأنه وباتت تفرض العقوبات والضرائب الجزافية على متعاطيه وتحرمه في الأماكن العمومية كيفما اتفق) وقد قال المبعوث ر ـةً للعالمين بتحريم الخبائث، وقد اتفق الأطباء على ضرره وتجنب المضرة واجب شرعًا وعقلاً، كما فيه إضاعة للمال، وقد نهى الإسلام ورسوله ﷺ عن إضاعة المال بقوله: "لا تزولا قدما ابن آدم حتى يسأل عن ثلاث، منها وعن ماله من أين اكتسبه و فيم أنفقه". وقول الباري سبحانه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (سورة الإسراء، **26 – 27**).

21- للإباضية نظام اسمه (حلقة العزابة) وهي هيئة محدودة العدد تمثل خيرة أهل البلد علمًا وصلاحًا، تقوم بالإشراف الكامل على شؤون المجتمع الإباضي: الدينية والتعليمية

والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما تمثل مجلس الشورى في زمن الظهور الدفاع، أما في زمن الشراء والكتمان فإنها تقوم بعمل الإمام وتمثله في مهامه.

كما لديهم منظمة اسمها (إِيرْوَان) تمثل المجلس الاستشاري المساعد للعزابة وهي القوة الثانية في البلد بعدها[67]. و"إِيرْوَان" جمع "إيرو" وهو لفظ أمازيغي، يعني طالب العلم الذي حفظ القرآن الكريم وتفرّغ للدراسة غالبًا. ويتشكل من مجموع هؤلاء الطلبة هيئة إيروان؛ وهي القوة المساندة للعزابة، لها نظم وتقاليد، وكثيرًا ما يُسْنِدُ لهم العزَّابة أعمالاً، كما يختارون منهم الأعضاء الجدد في الحلقة.

وقد أسس هذا النظام الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي (ت **927** هـ) حين قدم مزاب في منتصف القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد، إحياء للعلم.

لإيروان مقر خاص بهم في المسجد، فيه يجتمعون ويتداولون مهامهم ومسؤولياتهم، يسمى "تَدَّارْتْ نِيرْوَانْ" أي "دارُ إيروان"[68]. "وهي إحدى أقدم المؤسسات الدينية في العالم أجمع، حيث تواصل عملها وعطاءها طيلة ثمانية قرون متواصلة دون انقطاع، وقد أدرك المؤسسون الأوائل من مشايخ المذهب الإباضي في وادي ميزاب أن المجتمع الإباضي مجتمع مسجدي يعيش على هدى الكتاب والسنة النبوية ... وهي حلقة دعوية تربوية تعليمية..."[69].

وفي الختام نؤيد ما ذهب إليه الشيخ مُحَّد الغزالي ر ة الله عليه عندما قال: "وها هنا يجب التأكيد أننا نحترم أئمة الفقه الكبار احترامًا عميقًا، واحترام المدارس التي نشأت حولهم أو نشأت مستقلة عنهم ما دامت تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ"[70]. قال تعالى:﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (يوسف، **81**).

الخاتمة:

استهدف هذا البحث القيام بمحاولة قراءة الأنماط الفكرية والدينية ذات النزوع الكلامي للمذهب الإباضي، وقد انطلق من ضرورة ممارسة نقدية تحليلية لظاهرة الفرق والمذاهب الكلامية التي تُسْقَى بماء واحد وتتكئ في الاستدلال على أحكام الدين الإسلامي –عقيدة وشريعة– على خطاب واحد متعدد **Unidimensionnel** القرآن الكريم والحديث الشريف كأبرز المرجعيات في التأويل.

لقد تمت معالجة موضوعات المذهب الإباضي بطريقة التزمت المنهج العلمي القائم على الموازنة والمقارنة والربط الموضوعاتي والتاريخي بين الفروع والأصول، كما

نوقشت عقائد الإباضية مناقشة علمية حرّة، مما دفع بآلية البحث ممارسة تعتمد الإحصاء وتوظيف ا ,مول التراثي بالقدر الذي يتيح للملاحظات التخلص من الانطباعية، ويعين من خلال استقراء الدلالات الكلامية والفلسفية على إيضاح نتائج ربما اختفت وراء الحكم الذاتي المعتمد على الحدس... والنظر إلى المسائل المختلفة على أنها وجهات نظر اجتهادية بحتة. والتي تحتمل القبول والرد والرغبة عن اصطناع ا ,اباة والابتعاد عن أسباب العصبية.

وبعد، فإن المذهب الإباضي مذهب مفتوح على غيره، ولم يفقد الثقة بذاته يومًا، الأمر الذي جعله شاهدًا على العصر محفورًا في الذاكرة والوجدان العربي والإسلامي – اليوم – فلم يعرف العصبية والجمود والانغلاق على الذات، وتلك علة خلوده وحضوره في معركة المفاهيم.

ومن أدّل النتائج التي توصّل إليها البحث وأحاطت بها هذه الدراسة حول المذهب الإباضي والحفر في مكوناته النصية ومحمولاته الإبستيمية من وحي التأويل بين التزام النص وحجية إعمال الرأي ما يأتي:

1- إخراج بحث جامعي لإبراز دور المذاهب والفرق الدينية في إثراء المنظومة التشريعية والعقدية للإسلام في ضوء الدراسات الكلامية والفلسفية.

2- تناول البحث بعض المقولات الإباضية في تتبع دقيق واستقصاء كامل في إطار المرجعيات النصية والمعرفية ا ,يطة بها.

3- سدّ فراغ علمي بالمكتبة الجامعية ودعوة الباحثين والعارفين لحقيقة المذاهب الكلامية في العالم الإسلامي –اليوم– لتناول ظاهرة المذهب الإباضي بوصفه نقطة تمركز لعالمية الإسلام وتحديات العولمة.

4- صراع المذاهب الفكرية وفضيلة التقارب بينها أفرز أفانين الجدل في مختلف شؤون الحياة ومناهجها الدينية والعقلية والسياسية في عصر يكاد يفقد الأمة الإسلامية التمسك بهويتها، وبذا يصبح تعدد المذاهب والفرق والجماعات في الدفاع عن العقيدة والموروث الحضاري للإسلام ضرورة حتمية.

5- اعتبار النص الديني المقدس سلطة عقدية وتشريعية مطلّقة وأزلية وإبداع إلهي متجدد لا تقيّده مبادئ مطلقة، ومن ثَمَّ فإن القواعد التي تحكمه ليست بالضرورة خاضعة لمنطق الثبات والاستقرار.

6- اعتبار المذهب الإباضي امتدادًا تاريخيًا حيًّا للفكر الإسلامي الذي نما وترعرع في تربة الجدل الكلامي في الاستدلال على العقيدة منذ العصور الذهبية الأولى للإسلام.

7- الإباضية هي الفرقة الكلامية التي تتصدر قافلة المذاهب والفرق حاليًا في النظرية والممارسة ويؤيد هذه الطلائعية قوة انتشارها في العالم الإسلامي وقوة خطابها الديني والفكري المعتدل.

8- لقد تأوّلت الإباضية كثيرًا من آيات الخطاب القرآني على غير تأويلها، واتجهت بالكثير من نصوصه اتجاها عقليًا يرتكز على الحدس من أجل خدمة مبادئها التي تدين بها.

9- عقائد الإباضية أقرب لتوجهات أهل السنة والجماعة كونها توائم بين سلطة النقل وتجليات الأنساق المعرفية المستنبطة من أصول الاجتهاد بالرأي.

10- تتقاطع الأصول الفكرية للإباضية مع الأصول الخمسة للمعتزلة رغم الفرق في السياق والمنهج.

11- لقد تبنى المذهب الإباضي المقاربات النصية المقدسة منهجًا وروحًا ولم يعزل العقيدة عن المعركة ولا الشريعة عن دنيا الناس.

12- اعتبار الإباضية الترجمة العملية لقواعد السلوك الفردي والجماعي القويم في الإسلام وتنمية روح الانتماء والتعاضد والتآلف والأصالة، وعلة ذلك هيئاتها ومنظماتها التي تمثل خيرة أهل البلد علمًا وصلاحًا (حلقة العزابة وإروان) أنموذجًا.

الهوامش

[1]- منهج الإمام الجويني في الاستدلال على العقيدة: محمَّد بومعيزة رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستر في العقيدة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، **2001 – 2002** ص: ب.

[2]- المرجع نفسه، ص ت.

[3]- المرجع نفسه، ص ت.

[4]- المرجع نفسه، ص ج.

[5]- لسان العرب: ابن منظور مادة (كلم)، مؤسسة دار الرسالة، بيروت لبنان، ط**4**، **1996**.

[6]- الصاحبي: أ. د بن فارس، تحقيق أ. د السيد صقر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، د.ت، ص**81**، وينظر، سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي، تحقيق علي فودة، مكتبة الخانجي، ط**2**، **1994**، ص **26**. والمزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي، تحقيق أ. د محمَّد جاد المولى وآخرين، طبعة دار الجبل، بيروت، ج**1**، د.ت، ص **184**.

[7]-كتاب الصناعتين (الكتاب والشعر): أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمَّد البجاوي ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط**1**، د.ت، ص **69**.

[8]- في البلاغة العربية: علم المعاني، البيان، البديع: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د ت، **39**.

[9]- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني، تحقيق أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، ط2، 1987، ص 103.

[10]- منهج الإمام الجويني في الاستدلال على العقيدة: مُحَمَّد بومعيزة، ص 50.

[11]- المرجع نفسه، ص 51.

[12]- المنقذ من الضلال: أبو حامد الغزالي، طبعة مكتب النشر العربي، 1934، ص79.

[13]- المواقف في علم الكلام وشرحه للسيد الشريف علي بن مُحَمَّد الجرجاني: عضد الدين الأيجي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 1997، ص 34 /1.

[14]-كشاف اصطلاحات الفنون: مُحَمَّد بن علي التهانوي (مادة علم الكلام) كلكتا، د.ت، ص 1/30.

[15]- المقدمة: عبد الر ن بن خلدون، طبعة بيروت، 1956، ص 826.

[16]-كتاب التعريفات: الشريف علي بن مُحَمَّد الجرجاني، باب الكاف، القاهرة، ص 124.

[17]- دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية: عرفان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1997، ص 135.

[18]- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية: مصطفى عبد الرزاق، القاهرة، ط2، ص 264.

[19]-كتاب الفقه الأكبر: الإمام أبو حنيفة، طبعة حيدر آباد، الركن، ص 6.

[20]- شرح العقائد النسفية: سعد الدين التفتازاني (ت 791 هـ)، مطبعة مُحَمَّد علي وأولاده، ط2، 1358، ص 39.

[21]- الملل والنحل على هامش الفصل لابن حزم الأندلسي: أبو الفتح الشهرستاني، مصر، 1929، ص 32/1 – 33. وينظر التفتازاني المصدر نفسه، ص 48. وينظر رسالة التوحيد مد عبده، نشرة مُحَمَّد محي الدين عبد الحميد، 1966، ص8.

[22]- صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام: جلال الدين السيوطي، تحقيق علي سامي النشار، القاهرة،1947، ص 23.

[23]- مختصر جامع بيان العلم وفضله: ابن عبد البر (ت 463 هـ) – باب ما يكره فيه المناظرة –، القاهرة، ط1، 1320، ص 153.

[24]- رسالة التوحيد – باب التناهي عن الجدل– : ابن بابويه القمي، طهران، 1375، ص 197.

[25]- حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه.

[26]- موسوعة الفلسفة والفلاسفة ط– ي: عبد المنعم الحفني، الجزء الثاني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2010، ص 1349 – 1350.

[27]- معجم المصطلحات الإباضية أ– ش: تأليف مجموعة من الباحثين، الجزء الأول، مطابع النهضة، سلطنة عمان، 2008، ص ط – ي.

[28]- معجم مصطلحات الإباضية، الجزء الأول أ– ش، ص 2 – 3.

[29]– معجم مصطلحات الإباضية، ص 3. وينظر موسوعة الفلسفة والفلاسفة لعبد المنعم الحفني، أ – ض، ج1، مكتبة مدبولي القاهرة، ط3، 2010، ص 21. وينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات: اللواء حسن صادق/ مكتبة مدبولي، ط1، 2004، القاهرة، ص 197. وينظر موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات مد عبد الحليم عبد الفتاح، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت ص 149.

[30]– معجم مصطلحات الإباضية، الجزء الأول أ–ش، ص 4 (بتصرف).

[31]– المرجع نفسه، ص 4.

[32]– المرجع نفسه، ص 4 – 5.

[33]– المرجع نفسه، ص 6 (بتصرف).

[34]– موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص 149.

[*]– تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (ت 974 هـ)، حيدر آباد، د.ت، ص38 /2.

[35]– موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص 149 (بتصرف).

[36]– معجم مصطلحات الإباضية، ص 6.

[37]– موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص150 (بتصرف).

[38]– المرجع نفسه، ص 150.

[39]– معجم مصطلحات الإباضية، ص6 (بتصرف).

[40]– معجم مصطلحات الإباضية، ص 6. وينظر كذلك أهم المصادر التي صاغت هذه المدونة وشبكتها المعلوماتية بين ص 6 و7 لأهميتها.

[41]– بنية الإيقاع في الخطاب القرآني – مقاربة أسلوبية –: عبد الرحيم عزاب، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية والدراسات القرآنية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2009/ 2010، ص 150.

[42]– مجموع الفتاوى الكبرى: شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، كتاب أصول الفقه، منشورات مُحَمّد علي بيضون، ط1، 2000، بيروت لبنان، ص11 /185.

[43]– سلسلة الحق المر: مُحَمّد الغزالي، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، 2008، ص 3/1.

[44]– سلسة الحق المر: مُحَمّد الغزالي، ط1، 2005، ص 2 /115 (بتصرف).

[45]– سلسلة الحق المر مد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط5، 2005، ص 142.

[46]– بحوث في علوم التفسير والفقه والدعوة: مُحَمّد حسين الذهبي، دار الحديث، القاهرة، 2005، ص 182.

[47]– ينظر الملل والنحل للشهرستاني، ص1 /134، 135. والفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية: أبو منصور البغدادي، القاهرة 1910، ص61. والتبصير في الدين: أبو المظفر الإسفراييني، تحقيق عزت عطار الحسيني، دمشق، 1940، ص56. ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد، ص 100.

[48]– جذور الفتنة قي الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات: اللواء جسن صادق، ص 197.

[49]- موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات: محمد عبد الحليم عبد الفتاح، ص **155** (بتصرف).

[50]- بحوث في علوم التفسير والفقه والدعوة: محمد حسين الذهبي، ص **171**.

[51]- رواه الترميذي في سننه.

[52]- مجموع الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، **227 / 11**.

[53]- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز (**1367**). وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز (**949**) عن أنس.

[54]- سلسلة الحق المر: محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط**5**، **2008**، ص **3 / 19**.

[55]- مجموع الفتاوى الكبرى: تقي الدين بن تيمية، الجزء**11** ، ص**187**.

[56]- ينظر موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات مد عبد الحليم عبد الفتاح، ص **150**. ودراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد (فصل التشبه والتأويل) من ص**203** إلى ص**249**. كل ذلك لمزيد من الإلمام بحيثيات الموضوع والتطرق إليه من شتى جوانبه، مراعين الإشارة والإيجاز.

[57]- ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات: اللواء حسن صادق، مكتبة مدبولي، ط**1**،**2004**،ص **198** (بتصرف).

[58]- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: أبو الحسن الأشعري (ت**324**هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط**2**، **1969**،الجزء الأول، ص**203**.

[59]- ينظر موسوعة الأديان: محمود عبد الحليم عبد الفتاح، ص **151**.

[60]- ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية: اللواء حسن صادق، ص **198**.

[61]- ينظر دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد، فصل (الخوارج)، ص**100**. وموسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات مد عبد الحليم عبد الفتاح، ص **152**.

[62]-ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات:اللواء حسن صادق،ص **199**. وموسوعة الأديان مد عبد الحليم عبد الفتاح، ص **152**.

[63]- ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات:اللواء حسن صادق، ص **199**. و دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية لعرفان عبد الحميد، ص **99**.

[64]- ينظر موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات مد عبد الحليم عبد الفتاح، ص **152 – 153**.

[65]- ينظر كتاب الصحاح في الحديث النبوي الشريف، كتاب الصلاة.

[66]- ينظر جذور الفتنة في الفرق الإسلامية منذ عهد الرسول حتى اغتيال السادات، ص **199**، **200**، **201** (بتصرف).

[67]- موسوعة الأديان والمذاهب والفرق والجماعات، ص **153**.

[68]- معجم مصطلحات الإباضية، الجزء الأول،أ – ش، ص**86**.

69- مقال منشور بجريدة الخبر تحت عنوان: "حلقة العَزّابة... مؤسسة دينية عمرها 8 قرون " تأليف الأستاذ بابا وموسى بلقاسم، عدد 6095، المؤرخ 22 أوت 2010، ص22.

70- سلسلة الحق المر مد الغزالي ر ه الله تعالى، الجزء الثالث ، ط5، 2008، ص 226.